

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ
مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ
قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾
(هود: ٥٠)

حكمة ذكر أحداث الأولين في القرآن الكريم

التفسير:

تبين هذه الآية بكل وضوح أن القرآن لا يسرد أحداث الأولين كحكايات وأساطير، بل إنها أنباء الغيب.. أي أنها أحداث سوف تقع أمثالها في المستقبل. وكأن الله تعالى يقول: إنها يا محمد، أخبار عمّا وقع لنوح دون شك، ولكننا نقصد من ذكرها أن نخبرك أنك ستواجه أحداثاً مماثلة. ولذلك حُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ بمعنى أنه كما دمرنا قوم نوح إلا من آمن به منهم كذلك سوف نهلك جزءاً من قومك، وسوف نُخرج من نسلك ونسل المؤمنين بك أمة جديدة سوف ترفع لواء الصدق والتقوى في كل زمن عالياً خفّاقاً.

ويعجب المرء كيف يزعم البعض — رغم هذه الآيات الصريحة — أن القرآن لا يقصد بسرد هذه الأحداث إلا ذكر أساطير الأولين فقط؟! الحق أنه لا يذكر أيّ حادث من الماضي

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا
قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥٠﴾

(سورة هود)



من دروس: حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد

المصلح الموعود رحمته الله

الخليفة الثاني لحضرة الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام



وهناك اختلاف بسيط بين بيان التوراة وبين ما ورد في روايات يهودية أخرى، ولكن لا حاجة بنا للخوض في تفاصيلها، إلا أنه لا بأس من الإشارة إلى أن أحد كتب الروايات اليهودية المعروف باسم "مدراس أغاده" يذكر أن نوحاً سُمي بهذا الاسم لاختراعه المحراث (الموسوعة اليهودية ، كلمة Noah) بينما تذكر التوراة أن أباه هو الذي سماه بهذا الاسم .

وقد حاولوا التوفيق بين البيانيين في كتاب "سُفره يا شير" بقولهم: إن أباه سَمَّاه "مناحيم" ومعناه المعزّي، وقد أُطلق عليه "نوح" بعد الطوفان (الموسوعة اليهودية).

وقد اختلفوا أي اليهود أيضاً في كون نوح صالحاً أم لا؟ فقال بعضهم هو بار تقي، ويرى الآخرون أنه صالح إلى حد ما، بينما اعتبره البعض شريراً، وأنه قد نجا من الطوفان بسبب الصالحين الذين كان من المقدر أن يخرجوا من صلبه.

وورد في التلمود — وهو مجموعة روايات يهودية — أنه كان نبيا شارعاً، وأنه بدأ في تدوين شريعته بعد حادث الطوفان بثمانية وعشرين

**وكأن الله تعالى يقول:
إنها يا محمد، أخبار
عماً وقع لنوح دون
شك، ولكننا نقصد من
ذكرها أن نخبرك أنك
ستواجه أحداثاً مماثلة.**

فعمّروا الأرض من جديد. واستوت السفينة بعد الطوفان على جبال أزرط (التكوين: ٧ و٨). فترل هو وأولاده ليعيشوا على اليابسة مرة أخرى، وعملوا في الزراعة. فغرس كرمًا، وشرب من خمره، فسكر وتعزّى، فأبصره ابنه حام الذي أخبر أخويه ساماً ويافث بذلك. فأتى الأخيران إليه مشياً إلى الورا وسَتَرَ عورته، فلما أفاق دعا على ابنه حام قائلاً: ملعون كنعان أولاد حام الذين سيعمرون أرضاً باسم كنعان، وليكونوا عبيداً لذرية سام ويافث (التكوين ٩).

كما يتبين من التوراة أن أبناءه استوطنوا بعد الطوفان منطقة هي أرض العراق حالياً، إذ ورد فيها أن حفيد حام صار حاكماً على بابل وما جاورها (التكوين ١٠).

إلا لينبئ بأن المسلمين أيضاً سوف يواجهون مثله. وهذا ما حدث بالفعل. فما من حادثٍ من التاريخ القديم سرده القرآن الكريم إلا وقد وقع مثله مع الرسول ﷺ وأتباعه، أو سيقع بأمته في المستقبل.

هناك اختلاف كبير لدى المسلمين والمسيحيين واليهود حول طوفان نوح، وبما أنه لم يكن بوسعي ذكره بالتفصيل تحت آية معينة لذلك أذكر هنا بحثي ورأيي حوله مع آراء الآخرين.

تقول التوراة بأن والد نوح اسمه "لامك" الذي كان في الجيل التاسع من نسل آدم (عليه السلام). ولما كان نوح ابن خمس مائة سنة وُلد له سام وحام ويافث (التكوين ٦، ٥). عندما رأى الله فساد أهل الأرض قرّر تدميرهم. وكان نوح رجلاً باراً فاختره الله وأمره أن يصنع سفينة، وأن يأخذ فيها أهله وأولاده عند الطوفان، وأن يأخذ معه كذلك من كل البهائم الطاهرة سبعة سبعة، ذكراً وأنثى، وأما التي ليست بجلال فيأخذ منها اثنين ذكراً وأنثى (التكوين ٦).

وعندما جاء الطوفان أهلك كل ذي حياة على الأرض، إلا نوحاً ومن معه في الفلك من إنسان وحيوان،



عاماً.* وكانت شريعته تحتوي على شيء من المسائل الطبيعية والأحكام المماثلة لما ورد في شرع موسى عليه السلام، وأن الملك رافائيل هو الذي علّمه الطب وشيئاً من خواص الأعشاب، وتُقل كتابه إلى لغات أخرى، ومنه أخذ الهنود واليونان علم الطب. (الموسوعة اليهودية).

وبالمناسبة فقد فات علماء اليهود هنا أنه لم يبق في الدنيا بعد الطوفان إلا أولاد نوح فقط — كما يزعمون — إذ كان جميع سكانها من أولاد نوح، فما كانوا إذنً بحاجة إلى أية ترجمة لشرعه إذ كانوا يفهمون لغة جدهم نوح!

ومما يثير العجب وجود حكايات مشابهة لطوفان نوح في تراث السكان القدامى في كل قارة تقريباً (الموسوعة التوراتية). حيث تحكي الروايات القديمة في اليونان عن شخص كنوح وعن طوفان كطوفانه، مما يعني أن أوروبا أيضاً كانت على علم بحادث تاريخي من هذا القبيل. كما أن

السكان القدامى من أمريكا الشمالية يحكون قصصاً مشابهة لحادث نوح. بل هناك تشابه كبير في الأسماء والأمور الأخرى في روايات مختلفة من قارات مختلفة. فمثلاً تذكر الروايات القديمة البابلية اسم بطل الطوفان هو (هسيس إندرا) "أي العاقل"، وأنه كان العاشر بين الملوك. وهذا مشابه لما ورد في التوراة بأن نوحاً كان من الجيل العاشر بعد آدم عليه السلام (التكوين: ٥). بينما تذكر القصص من أمريكا الشمالية أن اسم البطل هو (كنيان)، ومعناه العاقل أيضاً. ثم هناك روايات متشابهة لدى القدماء من إيران ومصر والهند تتحدث كلها عن طوفان عظيم في القديم، وأن القلة فقط نجوا منه في سفينة عبد صالح. حيث تذكر الروايات الهندية والبابلية أن عبداً صالحاً تلقى من الله خبر الطوفان قبل حدوثه. تقول الروايات البابلية أنه تلقى هذا الإنذار في المنام، بينما تقول الهندية منها إن الآلهة حدّثته من وقوعه (الموسوعة اليهودية Deluge). وتذكر الروايات البابلية أن اسم الجبل الذي استوت عليه السفينة هو جبل أرمينيا. وقد قال المفسرون المسلمون بأن الجودي المذكور في القرآن هو جبل أرمينيا (١١٣).

(الكشاف وابن كثير). وهنا نجد توافقاً بين الرواية البابلية وبين القرآن. وبما أن بابل كانت موطناً لأولاد نوح — كما تشهد التوراة — فلا بد من ترجيح الرواية البابلية على غيرها، خصوصاً وأننا لا نرى أي مكسب يمكن أن يجنيه البابليون من ذكر حادث نوح، وذلك على عكس التوراة التي قد حاول مؤلفوها جاهدين أن يعطوا للعالم انطباعاً وكأن تاريخ الدنيا كله منحصر فيما تذكر التوراة فقط.

أما التراث الهندي فنجد فيه ذكر بطل الطوفان في كتاب باسم (ست بت برهمن) حيث ورد فيها أن (منو) هو أول إنسان، وكان ابناً لإله الشمس (دوشوات). كان يغتسل مرةً، فوقع في يده سمكة. فتوسلت إليه قائلة: لو أطلقت سراحني فإنني سوف أنجيك من طوفان عظيم قادم، ونصحته بصنع سفينة كبيرة. ولما جاء الطوفان أخذت السمكة السفينة إلى قمة جبل، حيث نزل (منو) عند هدوء الطوفان وقدم قرباناً. فوهب الله له بنتاً، دون أن تكون لها أم، ومنها تكاثر الناس دون أن يكون لها زوج. (الباب الثامن ص ١١٢ -

* هكذا ورد في التفسير الكبير، ولكن الذي ورد في الموسوعة اليهودية يقول بأنه بدأ بتدوينها في البيوبيل الثامن والعشرين أي في العام الخامس والسبعين بعد الطوفان.



... يمكن لقصة منسوجة من خيال أهل بلد واحد، في زمن موغل في القدم، حيث كانت الاتصالات بين الشعوب محدودة للغاية.. أن تنال هذا الانتشار الواسع في مناطق نائية وبلغات مختلفة، وأن تكتسب لدى أهلها أهمية متساوية بحيث تصبح جزءاً من تاريخ الديانات كلها!

العالم بهذا الشكل دون غيره من القصص والأساطير؟ ثم إنَّ هناك سؤالاً آخر يطرح نفسه: إذا كانت قصة نوح قصةً أسطورية فلا شك أنه لم ينسجها إلا أهل منطقة واحدة من العالم، فكيف نالت هذا الانتشار العالمي منذ القدم حتى سُجِّلت في تواريخ الديانات كلها. مَنْ من العقلاء يسلّم بأنه يمكن لقصة منسوجة من خيال أهل بلد واحد، في زمن موغل في القدم، حيث كانت الاتصالات بين الشعوب محدودة للغاية.. أن تنال هذا الانتشار الواسع في مناطق نائية وبلغات مختلفة، وأن تكتسب لدى أهلها أهمية متساوية بحيث تصبح جزءاً من تاريخ الديانات كلها!

عظيمة كان لها تأثير عالمي، ومن أجل ذلك شهدت عليه الشعوب من كل العالم وسجلته تواريخها. وحيث إنه من المستحيل حدوث طوفان عالمي يغطي كل الكرة الأرضية فلذا يرى العلمانيون في العصر الحديث أن القصة لا تعدو أن تكون حكاية تمثيلية فقط، حيث قالوا بأن كل ما في الأمر أن بعض الأقدمين كانوا قد تحدثوا عن دوران الأجرام الفلكية بهذا الأسلوب التمثيلي، فانخدع الناس بهذا التمثيل، وحوّلوه إلى أسطورة (الموسوعة التوراتية، Deluge).

ولكن هناك سؤالاً له ثقله وأهميته: كيف يمكن أن يكتسب هذا التمثيل - كما يسمّونه - كل هذه الأهمية والشعبية، وأن يترك هذا التأثير العميق في قلوب سكان المعمورة، ولماذا حفظه الناس من كل أنحاء

والرواية الثانية هي من كتاب (مها بمارتا) إذ جاء فيه أنه كان مع (منو) سبعة آخرون من أولي الألباب، وأن السمكة كانت في الواقع (برهما) أي الإله، وأنها علّمت (منو) كيف يخلق آلهةً أخرى وأناساً. (ص ١٦٤ - ١٦٥)

ووردت الرواية الثالثة في كتاب باسم (شريمدهاغوت بران)، وتذكر هذه الرواية أنهم اصطحبوا بعض الحيوانات في سفينتهم (باب ٢٤ ص ٨٦٠-٨٦٣).

فكل هذه الروايات ذات المصادر المختلفة متفقة في معظم الأمور حتى وإن هناك تشابهاً كبيراً بين الأسماء الواردة فيها. فاسم البطل في الروايات الهندية هو (منو)، وفي التوراة (نوح)، وفي التلمود (مناحيم)، وكلها أسماء متشابهة جداً. مع العلم أن (مناحيم) أصله (مناح)، لأنهم في العبرية يضيفون (يم) للتعظيم والاحترام. كذلك هناك تشابه في معاني الأسماء الواردة في الروايات البابلية والأمريكية، كما أشرنا إليه قبل قليل. كما أن سائر الروايات متفقة على وجود سفينة واحدة ونجاة بضعة أشخاص فقط. وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل دلالةً قطعية على حدوث كارثة



العصور — لا يسع الإنسان إلا أن يعترف بصحتها، وبأنها كانت ذات طابع عالمي وذات وقع غير عادي. وبعد التوصل إلى هذه النتيجة يسهل على المرء أن يدرك أن بيان القرآن عن الحادث يتفق مع هذه النتيجة في كل جزئياتها، كما لا يتعارض مع النواميس الطبيعية، إذ كل ما يقوله القرآن الكريم هو إن طوفاناً عظيماً حدث في منطقة من العالم في

وهذه أحداث واقعية لا مجال لأحد أن ينكرها. فإن القرآن الكريم والروايات المختلفة من شتى البلدان متفقة على أنها كانت منطقة جبلية، بل ويخبرنا القرآن أنها كانت وادياً محاطاً بسلسلة من الجبال. فمن الممكن تماماً أن يكون مدخل الوادي ضيقاً لوجود جبال محاذية، وكما يحدث في معظم الوديان الجبلية فإن مدخله قد انسدّ بصخور أو قطع جليدية

قديم الزمان وأباد أهلها جميعاً؛ وأن الله تعالى تفضّل على بطل الطوفان ببركات خاصة؛ وكتب لنسله غلبةً غير عادية بسبب

فقد ثبت من كل هذا أن نوحاً كان مؤسس الحضارة الإنسانية... نصل إلى النتيجة بأن هذا الرسول كان أول إنسان في مرحلة الحياة الحضارية، وليس أول بشر على الإطلاق.

من الطوفان. وإذا ما أخذنا هذين الأمرين بالاعتبار نصل إلى النتيجة بأن هذا الرسول كان أول إنسان في مرحلة الحياة الحضارية، وليس أول بشر على

كبيرة انحدرت نتيجة زلزال عنيف، ومن ناحية أخرى تفجرت عيون الماء من تحت الأرض، فارتفع سطح المياه المتجمعة في الوادي حتى غطت قمم الجبال. وقد حدث حادث مماثل لذلك في جبال التبت سنة ١٩٢٨م عندما سقط نهر جليدي في أحد الوديان. وبما أن الحادث قد وقع في مرحلة بدائية من الحضارة الإنسانية، وبما

صلاحه وتقواه؛ وأنه كانت هناك عندئذ أمم أخرى في العالم ولكن عذاب الطوفان لم يشملهم؛ وإنما لاقى هؤلاء مصيرهم في موعد كتبه الله عليهم؛ وأن الطوفان كان شديداً وعارفاً لدرجة أن الناس لم يجدوا الملاذ إلا في السفن، إذ هطلت أمطار غزيرة من السماء، كما تفجرت العيون الأرضية بالمياه حتى ارتفعت من غزارتها إلى ذرى الجبال.

الإطلاق. وبعد اتفاق هذه البيانات الثلاثة الهامة من الأديان المختلفة في المناطق المتباينة فإنه لا يبقى هناك مجال للشك في أن نوحاً هو الذي أرسى أساس الحضارة والمدنية. ذلك أنه عندما يحقق شعب من الشعوب ازدهاراً حضارياً ومدنياً فإنهم يتناسلون ويتكاثرون سريعاً، بينما تأخذ الشعوب المجاورة الخاضعة لهم



أدخلوا في حكاية الطوفان أسماء الأماكن والشخصيات المحلية المتعارف عليها في الوطن الجديد، وهكذا اكتسب الحادث الحقيقي الواحد للطوفان طابع أحداث عديدة.

دينهم وتحصّرت بحضارتهم، وهكذا ذاعت قصة الطوفان في هذه البلدان أيضاً. وبعد مرور زمن طويل عندما لم يبقَ لهؤلاء المستوطنين الجدد من قوم نوح أية علاقة بموطنهم الأصلي القديم، وصار الوطن الجديد هو وطنهم الحقيقي.. أدخلوا في حكاية الطوفان أسماء الأماكن والشخصيات المحلية المتعارف عليها في الوطن الجديد، وهكذا اكتسب الحادث الحقيقي الواحد للطوفان طابع أحداث عديدة.

ليس صحيحاً أيضاً أن كل هذه القصص من البلدان المختلفة تشير إلى أكثر من طوفان، بل الحق أن الطوفان واحد، ولم يغطّ إلا منطقة واحدة من الأرض فقط. وبما أن نوحاً عليه السلام كان أول إنسان في مرحلة الحضارة الإنسانية الأولى وأن ذريته وذرية أتباعه قد انتشروا بعد الطوفان في بلدان شتى وتغلّبوا على أهلها الأصليين بسبب تفوقهم الحضاري، لذا كانوا هم الخالدين الباقين، أو أن الأقوام المغلوبة اتبعت

في القلّة والانقراض بصورة تلقائية. وكلما استوطن شعب متحصّر أرض قوم أقلّ منهم حضارةً أضعفهم ومحو آثارهم. فيبدو أن كل بلد انتشرت فيه ذرية نوح وأتباعه الذين كانوا بمثابة الحلقة الأولى في سلسلة الحضارة الإنسانية.. فإنهم قضوا على سكانه الأصليين نهائياً، أو أضعفهم إذ جعلوا هذه الأمم الضعيفة تنصهر فيهم، أو أنهم على الأقل كسروا شوكتهم، وهكذا استطاعوا أن ينشروا تقاليدهم وعاداتهم وأن يخلّدوا آثارهم في كل أنحاء العالم. هكذا فإن قصة حادثة الطوفان التي كان لها وقع عميق في نفوس قوم نوح عليه السلام قد حققت بسبب استعمارهم الأرض انتشاراً عالمياً. نعم، إنه ليس صحيحاً أن طوفان نوح قد شمل الدنيا كلها، كما أنه

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظّمون أخوا الدنيا فإن وثب يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا